معروف الرصافي .. حكاية حياة

زياد سعود

استأثرت حياة الشاعر العراقي معروف الرصافي (١٨٧٥-١٩٤٥) باهتمام الباحثين والدارسين بسبب الحياة التي عاشها الشاعر وقد اهتم الباحث العراقي الدكتور يوسف عز الدين ببعض احاديث الرصافي وحققها ونشرها عام ٢٠٠٤،

معروف الرصافي

والأحاديث المنشورة في الكتاب الذي عنونه الدكتور يوسف بـ(الرصافي يروي سيرة حياته، سجل للحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بكل جرأة وصراحة)، والصادر عن دار (المدى) تتوزع على ثلاثة ابواب، الاول الاحاديث التي ادلى بها الرصافي لصديقه حاكم محكمة الصلح في الفلوجة المرحوم خالد محمد حافظ، والثاني احاديثه يوم غادر الفلوجة إلى محلة السفينة بالاعظمية والمدونة من قبل الاستاذ خالد كذلك وقد سبق للاستاذ المحقق المدقق عبد الحميد الرشودي ان نشرها في جريدة (الاتحاد) الاسبوعية الصادر خريف عام ١٩٨٩، والباب الثالث احاديث الرصافي التي ادلى بها للاستاذ كامل الجادرجي رحمه الله صيف عام ١٩٤٤ وقد نشرها الاستاذ كامل في العدد الاول من مجلة (الثقافة الجديدة) الصادر في شهر نيسان من عام ,١٩٥٤كان الرصافي قد ارتحل من بغداد من الدار التي ما زالت قائمة في سوق الهرج وفي الزقاق المؤدي من السوق إلى بناية الثانوية المركزية، ارتحل منتصف الثلاثينيات(١٩٣٣) إلى مدينة الفلوجة ونزل في ضيافة آل عريم، الذين انزلوه في احد منازهم المطلة على نهر الفرات قريباً من الجسر الذي كان قد ابتني حديثاً والشبيه بجسر الصرافية ببغداد.ارتحل إلى هناك بعد ان سئم الحياة في بغداد ولغرض التفرغ للمطالعة والكتابة فكان يمضي مدة الصباح حتى الظهر بالكتابة لكنه على الرغم من السنوات الطوال وحتى مغادرته الفلوجة ابان احداث مايس١٩٤١ ونشوب الحرب بين الجيش العراقي والقوات البريطانية لم يكمل تأليف كتابه (الشخصية المحمدية او حل اللغز المقدس)، والذي ظل مخطوطاً طيلة هذه السنوات ومنه نسخة لدى الاستاذ كامل الجادرجي واخرى لدى الاستاذ طه الراوي وثالثة في المجمع العلمي العراقي وقد نشر الكتاب في مدينة كولون عام ٢٠٠٢ من قبل دار الجمل.ليلاً ينعقد مجلس الرصافي اليومي الذي يحضره عدد من اصدقائه منهم حاكم محكمة الصلح في الفلوجة خالد محمد حافظ رحمه الله حتى اذا انفض السامر جلسا ليتحدثا ويسمرا وقد وجد خالد ان احاديث الرصافي هذه جديرة بالتسجيل والتدوين فأنه بدأ بتدوين الاحاديث حالما يعود إلى داره خشية اللبس وضياعها من الذاكرة لابل كان يستزيده ويستوضحه عن اشياء محددة وحوادث مهمة وبعضها شخصي وكان الرصافي يتحدث على سجيته وحينما يكون في اوج تدفقه وتألقه واخذ الخمر منه كل مأخذ وازال عن طريقه كل المحظورات والممنوعات واوغل في التنقيب عن الاسرار واذا كان ابو نواس قد اوقفها عند موطن الاسرار فأن الرصافي ما اوقفها، ترك نفسه تاخذ حريتها كاملة وكأنه يتحدث إلى نفسه.هذا الأمر يذكرنا بالرسائل الشخصية التي يتبادلها الأدباء والشخصيات العامة، انهم يتحدثون بصراحة كما لو كانوا يتحدثون مع انفسهم لانهم ما كانوا يحسبون انها ستقع في يد من ينشرها على الملأ لاحقاً فنجد فيها العجب العجاب من الضعف الانساني.

يقول مؤرخ حياة الرصافي وادبه الاستاذ عبد الحميد الرشودي: "كان المرحوم الاستاذ حافظ خالد (هكذا) قد عين قاضياً في مدينة الفلوجة وكان يؤم مجلس الرصافي وقد استهوته احاديث الرصافي فكان عند عودته إلى داره يدون مسموعاته في اوراق خاصة وكان يعرضها على الرصافي لتأييدها وتوثيقها وقد اتيح لي ان تشرفت بمعرفة المرحوم الاستاذ حافظ خالد يوم كان قاضياً في محكمة بغداد سنة ١٩٥٥ وقدمني اليه المرحوم عبد صالح فحدثني عن ذكريات الرصافي وكيفية تدوينها وانه كان في بعض الاحيان يستملي الرصافي بعض المعلومات التي عاصرها فدونها الرجل بأمانة وصدق وقال انه (يحتفظ (بها) وهي في اضبارة كبيرة"...

في احاديث الرصافي المنشورة في هذا الكتاب اختلاف واضطراب وخاصة ما يتعلق بزواجه من (فاطمة) يوم ذهب إلى الاستانة عام ١٩١٢ نائباً عن المنتفك في مجلس (المبعوثان) التركي (النواب) الذي انشئ بعد الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ وعزله والمناداة بالسلطان عبد المجيد بدلاً منه ومن ثم اعلان الدستور (المشروطية) اذ لم تخلف هذه المرأة بحجة كونها ضعيفة البنية، اذ يقول: (وكانت زوجتي فاطمة نحيفة للغاية ولهذا كانت احوالها الصحية لاتساعدها على الولادة فإنها حملت مرة واحدة واجهضت ابناً وأشار الطبيب عليها بعد ذلك بعدم الحمل والا فقدت حياتها واعطيت الادوية اللازمة وقد جاء ارشاد الطبيب في مصلحتي لاني لم اكن راغباً في الاولاد وبقيت في معاشرة زوجتي فاطمة المذكورة والسكن معها في بيت واحد المدة التي قضيتها في الاستانة وحتى تركي الاستانة بعد الهدنة) ص,٩١

عاش الرصافي في بغداد حياة تراوحت بين المد والجزر فمن تعيينه نائباً لرئيس لجنة النشر بوزارة المعارف الى محاربة الحكومة له ونفيه الاضطراري الى الفلوجة وعودته منها ليسكن في الاعظمية مع عبد صالح وعائلته وليتولى تدبير معيشته بكل صعوبة حتى انه نظم ابيات دعاية الى شركة غازي للسجائر مقابل مبلغ بسيط وقد جاء فيها

دخن سيجارة غازي
في وقفة واجتياز
واذكر نصيحي بخير
ان كنت ممن يجازي

وظل الرصافي بعيدا عن المحافل العامة حتى وفاته في نيسان ١٩٤٥ وقد ترك خلفه شعره ومؤلفاته الكثيرة.

رسائل التعليقات.. ومحنة الرصافي الاخيرة

رفعة عبد الرزاق محمد

ما اكثر المحن التي المت بشاعرنا الكبير معروف الرصافي.. وما اكثر الازمات التي اثارها خصومه المختلفون وما اكبر الصبر الذي تحلى به وهو يواجه تلك العواصف العاتية والتي لم تسلم من غبارها أيامه الاخيرة وايام الحرب العالمية الثانية اشرفت على نهايتها وامراض الشيخوخة بدأت تبرز- وبقوة- على هذا الشاعر العظيم وكان الشعر اقل مواهبه واهتمامه الاول في تلك السنين كان البحث والتحقيق والتأمل في بعض الجوانب التاريخية والفكرية.

ان الأمير الرصافي الفكرية لم تزل تستاهل التنويه والتذكير وقد اصبحت ملكاً للتاريخ وتجردت من الكثير من اسباب التحسس والتردد، ولعل الحديث عن محنته في ايامه الاخيرة عند صدور كتابه الذائع (رسائل التعليقات) سنة ١٩٤٤، لا يزيل اللبس عن بعض ما الصق بالرصافي ويجلي صفحات مطوية من تاريخ الفكر العراقي الحديث.

وبادئ ذي بدء، نذكر ان الرصافي بقي على موقفه العدائي تجاه الاسرة المالكة في العراق الى النهاية وموقفه من حركة ١٩٤١ ينبع من هذا العداء -كما نرى- ولم تفسد مواقفه الوساطات التي بذلت لانهاء العداء المتبادل وكان آخرها حفلة (الشاي) التي اقامها الوصي على العرش الامير عبد الاله للنواب السابقين ومنهم من وافق على خلعه من الوصاية في حوادث سنة ١٩٤١ فقد حضر عدد كبير منهم الى تلك الحفلة الخاصة معتذرين ومن الطبيعي ان يستمر غضب الوصي وهو -المعروف بحقده- على الذين رفضوا الدعوة وفي مقدمتهم الرصافي النائب في الثلاثينيات وقد استمر غضب الوصي على الشاعر الكبير حتى بعد وفاته (الجمعة ١٦ اذار ١٩٤٥) والمعروف ان الاستاذ قاسم الخطاط واجه صعوبات عندما اراد نشر كتاب عن الرصافي ومآثره بعد رحيله وقيل انه اقنع بمنحه امتياز جريدة ادبية.

حدثني الاستاذ الصحفي عبد القادر البراك، ان برقية الرصافي الى رشيد عالي الكيلاني مؤيدة حركته وقد نشرتها جريدة (البلاد) لرفائيل بطي، جعلت اصدقاء الامس والكثير من معارفه يبتعدون عنه خشية السلطة انذاك، والطريف ان احمد زكي الخياط كان قد هنأ الرصافي على برقيته تلك فاخرج من وظيفته بعد انتهاء حركة مايس ١٩٤١، وهذا ما جعله يبتعد عن نصرة الرصافي عندما اصبح مديرا للدعاية العامة بعد رد اعتباره بجهود شخصية معروفة!

بعد ان استقر الرصافي ببغداد، بعد تركه الفلوجة سنة ١٩٤١، كان يقضي اغلب وقته في مطالعة الكتب التاريخية والأدبية القديمة والحديثة يستعيرها من اصدقائه الخلص امثال كامل الجادرجي وطه الراوي ومصطفى علي وخيري الهنداوي ونذكر هنا انه انتهى في تلك الايام من كتابه (الشخصية المحمدية او حل اللغز المقدس) وبدأ باعارته الى من يثق به (وسنتحدث عن هذا الكتاب واحواله في مقال مقبل) وفي السنة نفسها بدأ بكتابة تعليقات على كتب مختلفة واهمها:

١- كتاب "التصوف الاسلامي" للدكتور زكي مبارك

٢- كتاب "النثر الفني" للدكتور زكي مبارك

٣- كتاب "التاريخ الاسلامي" للمستشرق الايطالي كايتاني وقد اطلع على ترجمة تركية لهذا الكتاب الكبير استعارها من كامل الجادرجي ونذكر انها كانت في عشرة اجزاء وقد ترجمها الكاتب التركي المشهور حسين جاهد

٤- كتاب "عالم الذباب" للدكتور فائق شاكر وقد علق الرصافي عليه مفنداً الرأي القديم في جناحي الذبابة وقد طبع ببغداد سنة ١٩٧٤

٥- كتاب مع ابي العلاء في سجنه" للدكتور طه حسين وقد سمى الرصافي تعليقاته هنا باسم "على باب سجن ابي العلاء" وقد نشر غير كامل ببغداد بعد وفاة الرصافي ضمن مطبوعات دار الحكمة بمقدمة لمحمد علي الزرقا وقد منعت مديرية الدعاية نشر الكتاب كاملاً وما طبع منه اقل من نصف الكتاب ولا يعرف مصير الكتاب كاملاً الى اليوم وكانت دار الحكمة قد اشترت مخطوطته من عبد صالح (خادم الرصافي) بمبلغ خمسين ديناراً وربما ضاع الاصل الكامل بعد ان دوهمت دار الحكمة سنة ١٩٤٧ من قبل السلطات الامنية وصودرت محتوياتها والمعروف ان الدار كانت تابعة للحزب الشيوعي السري.

وللرصافي تعليقات اخرى ضمنها كتابه "الرسالة العراقية" كتعليقه على كتاب "التقاليد الاسلامية والمبادئ النازية" لنجاتي صدقي وكتاب "حقيقة الامبراطورية البريطانية" لكاتب مجهول وكلاهما من منشورات السفارة البريطانية ابان الحرب العالمية الثانية.

وعندما قدم الرصافي تعليقاته للطبع لم يختر منها سوى الثلاثة الاولى التي ذكرناها واهمها

-كما توضح في الضجة التي اثيرت عند صدور الكتاب- تعليقاته على كتاب "التصوف الاسلامي" للدكتور زكي مبارك وقد بين الرصافي فيها ايمانه العميق بوحدة الوجود وان البحث والتفكير قد الجآه الى ذلك وان التصوف الاسلامي فكرة فلسفية مجردة لا علاقة لها بالزهد او العبادة وان الصوفية هم فلاسفة الاسلام وهم ابعد الناس عن الزهد والتقشف وان الرسول الكريم جاء بحقيقتين هما وحدة الاله ووحدة الوجود.

واختار اسم "رسائل التعليقات" لكتابه الذي صدر سنة ١٩٤٤ مطبوعاً في مطبعة المعارف ببغداد وبمقدمة كتبها صديقه الشاعر نعمان ماهر الكنعاني ويذكر الاستاذ مصطفى علي ان الرصافي اعطى الكتاب الى الدكتور عبد الوهاب عزام عند زيارته بغداد ليطبعه في مصر ومضت سنتان ولم يطبع الكتاب فطلب من طه الراوي ان يسأل عزاما عنه عندما سافر الى القاهرة ولم يتمكن الراوي من تحقيق أي شيء وذكر الاستاذ نعمان ماهر الكنعاني انه سأل عزام سنة ١٩٤٦ في دمشق فاخبره انه أعطاه الى احمد حسن الزيات ولكن ظروف الحرب حالت دون ذلك ولم تزل هذه الرسائل لدى الزيات، فاضطر الرصافي الى ان يستعين بنسخة كتبها مصطفى علي وطبعها.

❖❖❖

وما ان صدر الكتاب ووزع ببغداد في منتصف شباط ١٩٤٤ حتى اندلعت ثورة عنيفة ضد الرصافي قادها عدد من خصوم الرصافي وبعض موظفي الاوقاف دفعت شاعرنا الكبير الى كتابة وصيته المدوية وايداعها لدى احد اصدقائه وقد اثبت الاستاذ عبد الحميد الرشودي في مباحثه عن الرصافي ان الوصية كتبت في ربيع سنة ١٩٤٤ على اثر الضجة المثارة حول كتاب "رسائل التعليقات" وقد اعترف الرصافي فيها بان ايمانه بالدين الاسلامي لا يتزعزع الا انه يختلف مع ايمان الاخرين من امور يعدونها من الدين وليست هي منه الا بمنزلة القشور من اللباب وقدم وصيته بقوله: اراهم يهيجون علي العوام باسم الدين وما اظنهم يتركونني حتى بعد موتي في الحياة وليس لي من التجئ اليه سوى الله وكفى بالله حافظاً وحسيباً.

ويذكر الاستاذ ناجي القشطيني في ذكرياته عن هذه القضية (جريدة البلد ليوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٦) انه عندما كان مديرا للمطبوعات في مديرية الدعاية العامة على عهد مديرها احمد زكي الخياط جاءه الرصافي وقدم له دفتراً يضم تعليقاته المذكورة وطلب ان يقرأها ويسمح بنشرها فاجابه القشطيني: يا استاذ يؤسفني ان اقول لك في هذه الرسائل ما لا يمكن نشره ولكن ارجو ان تمهلني اسبوعاً.

وبعد اسبوع استطاع القشطيني بتدخل الشيخ عبد الوهاب البدري من اقناع الرصافي بحذف الفقرات من الرسائل واستدعى عبد الكريم قدوري صاحب مطبعة المعارف واتفق معه على طبع الرسائل كما قصد رئيس الوزراء نوري السعيد لتسهيل الحصول على اجازة شراء الورق من مديرية الاموال المجمدة، هذا ما ذكره القشطيني غير ان المعروف ان علي كمال الوجيه الكردي المعروف هو الذي اشترى الورق اللازم للطبع، وتم اقناعه عن طريق صهره محمود السنوي، صديق الرصافي الحميم.

وبعد ايام قليلة من صدور الكتاب (منتصف شباط ١٩٤٤) رفعت الى الوصي الامير عبد الاله مضبطة جمعية الهداية الاسلامية ومجموعة من موظفي الاوقاف تطالب بايقاف توزيع كتاب (رسائل التعليقات) وتقديم مؤلفه معروف الرصافي للمحاكمة بتهمة الهجوم على الدين الاسلامي وشتم الرسول الكريم، وحول الوصي العريضة الى مجلس الوزراء وطلب التحقيق في الموضوع ويذكر القشطيني ان رئيس الوزراء استدعاه بصفته مدير المطبوعات بحضور مدير الاوقاف العام رؤوف الكبيسي وتم الاتفاق على إحالة الكتاب الى لجنة من كبار العلماء لقراءته وبيان رأيهم فيه كما كتب سكرتير مجلس الوزراء (نوري القاضي) رداً على مطالب جمعية الهداية الاسلامية بمراجعة السبل القانونية اذا ما اقترف الرصافي جريمة.

وقررت الحكومة ايقاف بيع الكتاب، حتى تبت في امره مجموعة من رجال الفكر وعلى الرغم من ان اغلبهم اجازوا الكتاب ونفوا ان يتضمن شيئاً ضد الدين الاسلامي والرسول الكريم فان الحكومة اشترت النسخ الباقية لدى متعهد التوزيع، وعددها خمسون نسخة من اربعمئة نسخة مطبوعة وقد حدثني الصحفي والكاتب القدير عبد القادر البراك، وكانت له صلة بالرصافي، ان الضجة حول (رسائل التعليقات) كانت بتوجيه من البلاط الملكي ومن الموظفين الذين لهم صلة بالامير عبد الاله ولهذا حقدان -كما يذكر مصطفى علي- احدهما قديم موروث بسبب موقف الرصافي من الشريف الحسين ابان الثورة العربية سنة ١٩١٦ وانجاله الملوك، والثاني جديد بسبب موقفه من احداث مايس ,١٩٤١ لقد شنع مهاجمو الرصافي على ما جاء في رسائل التعليقات (ص٩٩) في حوار خيالي بينه وبين الشاعر المعري واشاعوا ان الرصافي قصد الرسول الكريم في ذلك الحوار.. وقد ذكر الرصافي في رسائله الشخصية لاصدقائه انه لم يقصد النبي الكريم البتة، مع ان ما قاله ابو العلاء المعري قد اخذه من الحديث النبوي الشهير: انما يسعى المرء لغاريه.، ثم نشر الرصافي بياناً طويلاً بعنوان (كلمة الى الخصوم) اكد فيه انه لم يدر في خلده انه يهاجم الرسول الكريم وانه في المقابل تحدث كثيراً في رسائل التعليقات بما ينافي هذا القصد الذي أتهم به ونظم آنذاك قصيدة جاء فيها:

يالاهجين بشتمي في مجالسهم
ناموا على الامن في احضان غفراني
لولا ترفع نفسي عن سفاهتكم
احرقتكم من لظى هجري بنيران
جادلتموني فما احسنتموا جدلي

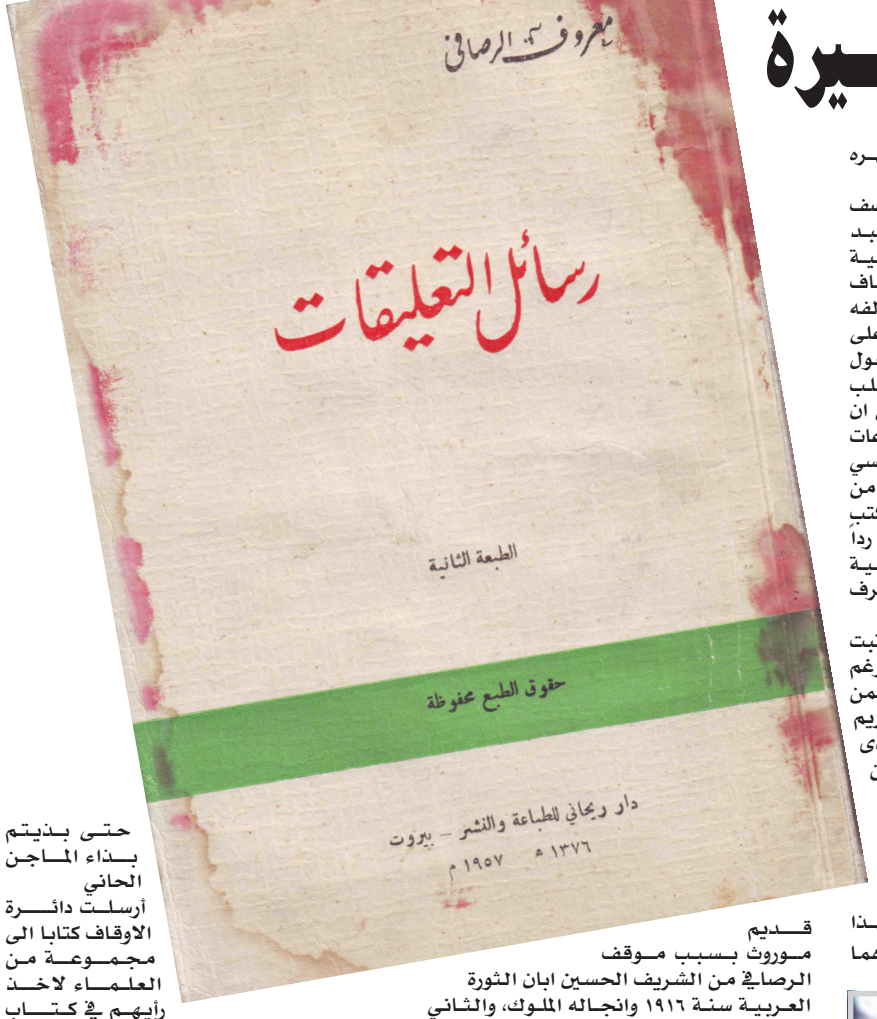

حتى بذيتم بذاء الماجن الحاني

أرسلت دائرة الاوقاف كتابا الى مجموعة من العلماء لاخذ رأيهم في كتاب الرصافي وهم: فهمي المدرس وعبد المجيد جميل ودرويش الالوسي وحمدي الاعظمي وطه الراوي ومحمود الملاح ومنير القاضي، وتاريخ كتاب الاوقاف العامة هو ٢٩ شباط ,١٩٤٤ وذكر ان نوري السعيد اضاف اسم الشيخ بهاء الدين النقشبندي (النائب) الى قائمة العلماء تلك وافتى الجميل والمدرس والملاح والاعظمي بعدم وجود ما يمس الدين واجازوا الكتاب اما الثلاثة الاخرون فلم يفتوا بشيء ولعل ما ذكره المدرس والجميل وهما عالمان كبيران لا سبيل الى الطعن بما يذهبان اليه ما ينفي التهمة عن الرصافي جملة وتفصيلا وانه على العكس من ذلك فقد كان مدافعاً عن حياض الدين الاسلامي ومن المخلصين للسيرة النبوية، ولم يظهر في كتابه ما يمس الدين وكرامته.

وبالمقابل فقد استمر الشيخ جلال الحنفي في هجومه على الرصافي وجعل من جريدة (الاخبار) ميداناً لكتاباته كما قام الشيخ شاكر البدري بهجومه من دار الاذاعة يوم ٢٤ شباط ١٩٤٤ ولم يكتف الحنفي بذلك فقد حمل معه نسخاً من الكتاب وذهب الى مدينة النجف الاشرف، ليحرض علماءها ضد الرصافي فنجح مع الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء وفشل مع السيد ابو الحسن الاصفهاني المرجع الكبير في وقته فقد افتى كاشف الغطاء-ويظهر انه لم يقرأ الكتاب كاملاً كما يذكر في مقدمة فتواه -ضد الرصافي وطلب من الحكومة طرد الرصافي من العراق والحاقه ببلاد الكفر واتلاف نسخ الكتاب بينما ذكر جعفر الخليلي ان المرجع الكبير السيد ابو الحسن الموسوي الاصفهاني افتى بان الكتاب لا يتضمن ما يدعو الى الكفر وان الكثيرين ذهبوا الى ما ذهب اليه الرصافي ولم يكفروا ومع هذا فقد اوعز وزير الداخلية عمر نظمي لايقاف الضجة بشراء النسخ الباقية وهذه من اطرف عمليات المصادرة.

والمهم هنا ان هذه المعركة انتقلت الى خارج العراق عندما بدأ (دريني خشبة) بكتابات مقالات ضد آراء الرصافي في رسائل التعليقات وذلك على صفحات مجلة الرسالة المصرية التي يصدرها احمد حسن الزيات، وقد حمل فيها على الرصافي وعقيدته الدينية في اربع مقالات ورد عليها الرصافي بمقالتين وقد وصف الاديب مصطفى علي مقالات خشبة بانها كلام يندى له جبين العلم خجلاً ويتوارى عنها الحياء حياء ويبرأ منها النقد الحر والجدال النزيه.

كما رد على خشبة الدكتور زكي مبارك صاحب كتاب "التصوف الاسلامي" الذي علق عليه الرصافي وكان احد تعليقاته ثغرة للهجوم عليه كما مر فقال مبارك: قرأت كلمة الاستاذ دريني خشبة في الرد على الاستاذ معروف الرصافي وهي كلمة لا تتسق مع موضوع البحث لأن الاستاذ دريني سلك فيها مسلك التحدي للاستاذ الرصافي وذلك مسلك لا أرتضيه في مثل هذه المسجالات.

وبعد هذه صفحة مطوية من تاريخ الحياة الفكرية في العراق الحديث اوضحنا الحلقات الرئيسية فيها وهي في الوقت نفسه دعوة للباحثن لاستجلاء اسرارها ومشاهدها فقد خرج الرصافي -كما نعتقد- منها منتصراً وجعلت الناس يدركون ان الشعر اقل ادواته فلا غرو ان شيعوه الى مثواه الاخير بعد اشهر تشييعاً مهيباً وان يصلي عليه الشيخ حمدي الاعظمي وهو من اشهر علماء العراق يومذاك.

معروف الرصافي

كامل الجادرجي

الوصي عبدالاله

النثر الجاهلي

معروف الرصافي

تنشر صفحة ذاكرة هذا الجزء من رسالة الرصافي الثانية في مناقشة د. زكي مبارك حول كتابه "النثر الفني" كجزء من تجارب الرصافي النقدية"

هذا عنوان فصل كتبه الدكتور زكي مبارك في كتابه "النثر الفني" فقال: "لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الاسلام على ان العرب لم يكن لهم وجود ادبي ولا سياسي قبل عصر النبوة، وان الاسلام هو الذي احياهم بعد موت، ونبههم بعد خمول".

فأقول: اولا: من اين علم الدكتور هذا الاتفاق والى أي دليل يستند في اثباته؟ هذا ما لم يذكره هو ولا اعلمه انا، ولكن ثقتي بالدكتور وبسعة اطلاعه تدعوني الى التسليم به دون تردد.

ثانيا: أترك نفي الوجود السياسي عن العرب قبل الاسلام لمن شاء ان يتكلم فيه من الناس، واما الوجود الادبي فاني انكر القول بنفيه اشد الانكار هب مؤرخي الاسلام غفلوا عنه فنفوه، فما بال مؤرخي اللغة وآدابها يعمون عنه وهم فيه خائضون.

من القضايا التي لا تقبل الريب ولا المراء ان لغة كل قوم تدل دلالة قطعية على كل ما كان عندهم من مظاهر الحياة، وعليه فمفردات اللغة العربية وحدها كافية لتفنيد هذا القول كل التفنيد انا لا ادعي ان اللغة العربية تتسع اليوم بمفرداتها وتعابيرها لكل ما تتسع له اللغات الحية في هذا العصر فان هذه دعوى باطلة يكذبها الواقع. بل اعترف بانها لا تستطيع في هذا العصر ان تماشي اللغات الحية، خاصة في علومها الا مشية عرجاء ولكن هذا ليس من عيبها بل هو من عيب اهلها الذين سارت بعدهم الامم وهم ظلوا واقفين، وكيف يكون ذلك من عيبها وفيها من قواعد التركيب والتصريف والاشتقاق والتعريب والمزج والنحت ما يحير الالباب ويستوجب الاعجاب.

ان علماء اللغة العربية قد جمعوا من مفرداتها في معاجمهم ما ينوف على سبعين الف مادة من اسماء وافعال وحروف وادوات، هذا عدا ما يتفرع من هذه المواد من المشتقات.

لقد قيل: ان الاثر يدل على المسير وان البعرة تدل على البعير، فكيف لا تدل هذه اللغة الواسعة على ما نفاه هؤلاء المتفيهقون.

ان اللغة العربية تعرب لنا بمفرداتها عن كل ما دق وجل من الامور المادية والمعنوية حتى المعاني المجردة، وعن كل ما يتعلق بالعلم والادب والخلقة والاخلاق والنفس والجسم والموت والحياة والسياسة والتجارة وسائر الصنائع والحروف، وبالجملة تعرب لنا بمفرداتها عن كل ما في العالم العلوي من مظاهر، وفي العالم السفلي من حيوان ونبات وجماد.

ولا ريب ان العلم بالاسماء يستلزم العلم بالمسميات، بل العلم بالاسماء هو بعينه العلم بالمسميات. وان لغة كل قوم تمثل حياتهم في كل ما اشتملت عليه من معاني مفرداتها وعباراتها. فهل من المعقول الا يكون وجود ادبي لقوم هذه لغتهم.

ولا ريب ان اللغة العربية بهذه السعة وهذا الكمال لم تحدث فوراً، ولم تنزل على اهلها من السماء دفعة واحدة، بل هي نتيجة تطور وتقلب في الحياة المادية والمعنوية في مدى قرون عديدة، ثم ان اللغة العربية معربة والاعراب فيها كمالي لا ضروري كما يدعيه النحويون، بدليل ان التفاهم والتمييز بين المعاني المختلفة حاصل في العامية التي لا اعراب فيها.

فالاعراب في الفصحى كمالي هو بلا شك نتيجة من نتائج تطورها وتكاملها في القرون المواضي. ولا يستبعد ان تكون الحركات الاعرابية ليست الا عضواً أثرياً لكلمات اندثرت بطول الاستعمال فأبقت بعدها هذه الحركات، وهذا يدل على ان اللغة العربية قد مرت عليها اطوار كثيرة حتى بلغت هذا الكمال.

هبهم ضلوا فانكروا وجود النثر الجاهلي، فماذا يقولون فيما اعترفوا بوجوده من شعر وخطب واساجيع؟ اوليست هذه من الادب، وهل انحصر الادب كله في النثر وحده لا شريك له. وهبهم ضلوا فارتابوا في كل ما رواه الرواة عن اهل الجاهلية من شعر وخطب وسجع، فقالوا انه من وضع الرواة الذين وضعوه بعد الاسلام فماذا يقولون لو قلنا لهم من اين تعلم الرواة الاسلاميون هذا المنهج الادبي الجاهلي حتى وضعوا فيه ما وضعوا على لسان اهل الجاهلية فهل نبت لهم من الارض كما تنبت الحبة فاخذوه واصطنعوه ثم نسبوه الى الجاهلية ام الرواة هم الذين ابتدعوه من تلقاء انفسهم واخترعوه لا على مثال ثم نسبوه الى الجاهلية.

لو سلمنا ان هذه الروايات كلها موضوعة في الاسلام ولا اصل لها في الجاهلية لما لزم من ذلك نفي الادب الجاهلي بالمرة، لان الرواة انما انتهجوا في وضعها منهج الجاهليين ولم يخترعوها هم فان لم تكن هي للجاهليين كانت بحكم البداهة دليلاً على ان للجاهليين مثلها على اقل تقدير.

انا لا انكر وضع الرواة، ولا الشعر الجاهلي المنحول فان ذلك ثابت لا مرية فيه "ولكن لا يلزم منه خلو العهد الجاهلي من الشعر والادب بالمرة حتى اني لا اقول بان المنحول اكثر من غيره بل اقول بالعكس. ولو ساعدني التوفيق لوضعت كتاباً اميز به المنحول من غير المنحول بميزات يعنو لها الذوق السليم والادب الصريح فان ذلك لا يخفى على الناقد البصير.